في الجغرافية الطبيعية الموحدة: نحو بديل للجغرافية السياسية المجزّئة

عبد النبي اصطيف(*)

عولمة الغرب مقابل تعددية الشرق:

منذ أن انتشى الغرب بتسنّمه الذرى العسكرية والاقتصادية والعلمية، وبالتالي السياسية، في عالمنا المعاصر، ومنذ أن أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب عن ولادة ما سماه بـ «النظام العالمي الجديد» New World Order عام ١٩٩٠م، مطلقاً مرحلة «العولمة» Globalization، لتوحّد العالم على الأنموذج الأمريكي، وتحوّله إلى مثيل للغرب - على الأقل في الظاهر - لأن هذا الغرب، على خلاف ما يعلن، لا يطيق فكرة الاختلاف، والاختلاف - كما يعلم الناس كلهم - هو سر التنوع الخلاق الذي يكمن وراءه جمال الحياة الإنسانية وروعتها، وكل ما فيها من سحر، أقول منذ أن كان للغرب كل هذا، والشرق كله يعيش كابوس تهديد الغرب لهويته على كل المستويات.

والحقيقة أن تهديد الغرب لهوية الشرق، القائمة أساساً على التنوع الخلاق الذي أبدع حضارات العالم القديم والوسيط، والذي لا يزال يسهم، وإن كان ذلك بطرق غير مباشرة، في إبداع حضارة العالم الحديث، ليس جديداً. وأكبر شاهد عليه، وربما كان ليس آخر شاهد، هو هذه الحدود السياسية التي رسمها لدول منطقتنا في مكاتب وزارات المستعمرات والخارجية في حواضره (لندن وباريس ومدريد وبرلين وبروكسل وغيرها)، ومزق بها كوناً جميلاً يكاد الحنين إليه يقتل بعضنا بعد أن غدا فردوسنا المفقود بفضل المستعمر الغربي الذي لا يكاد يملّ أو يكل في المضي في تفتيت كياناتنا وتبديدها حتى لا تقوم لها قائمة ويبقى وحده في الميدان سيّداً مطاعاً: يمثلنا، ويتحدث بلساننا، ويقرر بالنيابة عنا، ويصرّف أقدارنا، ويستثمر خيراتنا، ويقمع تطلعاتنا، ويئد طموحاتنا في العيش بحرية وكرامة، وبفعل ذلك كله باسم نشر قيم الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحماية البيئة، وغيرها مما نرى عاقبته في فلسطين والعراق. ولا ندري بعدها أيّ منا التالي في التأهل للدخول في غرفة عمليات هذا "الطبيب النبيل المتطوع" لمداواة أدوائنا التي لا تروقه والتي ربما كان على رأسها الممانعة والمقاومة لمشروعه الأخير في خلق

(*) أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث والترجمة في جامعة دمشق، والمدير العام للهيئة العامة السورية للكتاب.

«شرق أوسط أكبر» Great Middle East يمكنه من احتواء العالم الإسلامي برمته من المحيط الأطلسي وحتى المحيط الهادي ليكون التابع المسالم المرن والمنقاد لإرادته التي تبدو لبوش الابن «إرادة إلهية» عليه أن ينفذها بوصفه المخلص الجديد.

وربما كان من المفارقة حقاً، إن لم يكن من النفاق الفاضح والتنكر الصريح للمبادئ المعلنة، ألا يدخل الغرب في حسبانه، وهو يرسم الحدود السياسية للدويلات المختلفة التي تجثم على صدر الشرق، مبدأه في إقامة الدول القومية nation states – هذا المبدأ الذي اتخذه سلاحاً فعالاً في شق الصفوف بين أمم الشرق ولاسيما بين العرب والأتراك والأكراد وغيرهم عندما بث فيهم روح العنصرية العرقية بوصفها مكوناً أساسياً من مكونات قومياتهم المشكلّة على الأنموذج الغربي، ونجح في تمزيق الإمبراطورية العثمانية التي كانت آخر تعبير عن وحدة الشرق بتنوعه الخلاق القائم على المبدأ الإلهي في الاختلاف الذي ييسّر التعارف:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ (سورة الحجرات، الآية ١٣).

إن من الأهمية بمكان أن يعاود العرب خاصة والمسلمون عامة النظر إلى الطرق والآليات التي تمكننا من مقاومة العولمة الغربية القائمة على إشاعة الأنموذج الغربي في جميع وجوه الحياة، إن لم يكن فرضه على العالم، والساعية إلى تسهيل انتقال رؤوس الأموال في أي مكان يتيح:

- قوىً عاملة رخيصة.
- مواد أولية شبه مجانية.
- قوانين مرنة بل شبه مستسلمة لإغراءات الفساد.
- سوقاً لا تفكر كثيراً في الجودة والنوعية بمقدار ما يفكر بتوافر السلعة وسعرها.
- مجتمعات صرفها التفكير في لقمة العيش عن الاهتمام ببيئتها، أو قيمها، أو نسيجها الاجتماعي.

الجغرافية الطبيعية مقابل الجغرافية السياسية:

ويبدو لي أن خير سبيل وأكثره جدوى في مقاومة هذه العولمة أن نفيد منها في استعادة خارطة الشرق الطبيعية الكامنة تحت الخارطة السياسية المفروضة من جانب الغرب، أو بعبارة أخرى علينا أن نفكر في أن نستبدل بالجغرافية السياسية لمنطقتنا جغرافيتها الطبيعية التي تعيد إلى الشرق وحدته، ويستعيد بها تنوعه الخلاق القائم على العيش المشترك والإسهام الإيجابي في بناء الحضارة الإنسانية التي

ترتقي بحياة الشرقي وغيره من جميع وجوهها.

واستعادة هذه الجغرافية الطبيعية لا يكون بالاعتماد على الأنظمة السياسية القائمة التي باتت تفكر في كياناتها القطرية واستمرارها أكثر مما تفكر في ازدهارها وتقدمها ضمن وعائها الحضاري وحوضها الطبيعي. بل يكون باستنهاض القوى الكامنة في مجتمعات هذه الكيانات السياسية من مؤسسات المجتمع المدني وروابطه وهيئاته وجمعياته ونقاباته واتحاداته فضلاً عن مفكريه ومثقفيه وكتابه وعلمائه وفنانيه (لأنها تشكل النسيج الحقيقي لهذه المجتمعات ولأنها صاحبة القضية الأساسية في نهوضها وتقدمها وتأمين حياة حرة وكريمة وواعدة لمواطنيها) وإقامة الروابط المتينة فيما بينها عبر هذه الكيانات السياسية المصطنعة وتعبئتها ثقافياً وفكرياً واجتماعياً وسياسياً بغرض العمل على استعادة الوحدة الطبيعية للشرق، واستعادة دوره الحضاري الذي لا ينكر فضله السابق حتى علماء الغرب أنفسهم. وبالتالي علينا أن نطلق من هذا المنبر دعوة مدوية مخلصة إلى مختلف مكونات مجتمعات الشرق القطرية:

يا مفكري الشرق الطبيعي اتحدوا

يا مؤرخي الشرق الطبيعي اتحدوا

يا علماء الشرق الطبيعي اتحدوا

يا فناني الشرق الطبيعي اتحدوا

يا كتّاب الشرق الطبيعي اتحدوا

يا أيها الشرقيون اتحدوا

ففي اتحادكم قوة تدفع عنكم هيمنة الآخر واستغلاله وتحكمه بمصيركم وخيراتكم وثرواتكم، وفيه حرية تمارسونها إرادة تقررون من خلالها مستقبلكم ومصيركم، وفيه أمل في بناء حياة أفضل لكم ولأبنائكم وأحفادكم، وفيه استعادة لدوركم الحضاري (الذي ينعم بمنجزاته غيركم ولاسيما الغرب الذي استيقظت فيه العنصرية الكامنة أبداً في مختلف جوانب حياته)، ولرسالتكم الإنسانية:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (سورة آل عمران، الآية ١١٠).

ونبينا وأسوتنا الحسنة لم يرسل للعرب وحدهم، ولا للمسلمين وحدهم، ولا للشرق وحده، وإنما للإنسانية كلها: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء، الآية ١٠٧).

❖❖❖

المعارج

شهرية متخصصة تعنى بالدراسات القرآنية وحوار الأديان - السنة 18 - العدد/ 102 / 2008 م - الموافق 1429 هـ

حوار الشرق الأوسط

والبدائل العربية و الإسلامية